قضية الجزائر ... أبداً

« مجندون يشهدون » ...

بقلم الكاتب الفرنسي الكبير
جان بول سارتر

هذا مقال كان الكاتب الفرنسي الكبير جان بول سارتر قد كتبه لاحدى الصحف اليومية الكبرى في فرنسا . ولكن الصحيفة رفضته ، فنشره سارتر في مجلته « الازمنة الحديثة » (العدد ١٣٥) وفيه تحليل عميق لنفسية الفرنسيين تجاه قضية الجزائر المكافحة ، وفضح لهذه النفسية الخاضعة لحملة الدعاية والتضليل والتزييف التي تشنها السلطات الفرنسية منذ وقت طويل .

ولعل القراء يذكرون الدراسة الرائعة التي كان سارتر قد كتبها في العام الماضي عن « نظام الاستعمار الفرنسي في الجزائر » ونشرتها (الآداب) في العدد السادس ١٩٥٦ . فلا بد لنا هنا من ان نوجه تحية اخرى الى هذا الكاتب الفرنسي الحر الذي لا بد ان ينتصر صوته في النهاية على اصوات الدعاية والاجرام .

نشرت اخيرا مجموعة من الشهادات والوثائق عن الطرق التي نتبعها في الجزائر لاحلال السلام ، وذلك في كتاب عنوانه « مجندون يشهدون » Des Rappelés témoignent فهل قرأتموه ؟ ان هؤلاء العائدين مسيحيون ، كهنة ، رجال دين مجندون . وقد يبدو معقولا ان تختلف آراؤهم على صعيد السياسة العامة ، وان كانوا لم يذكروا من ذلك شيئا . ولكنهم يملكون الارادة المشتركة في ان يكشفوا عن هذا القرح ـ الذي ما زال بعيدا عن ان يشمل الجيش كله، غير انه بات من المستحيل تعيين مكانه بالضبط ـ وعن تلك الممارسة المنظمة العنيدة للعنف المطلق . فهناك الوان من السلب والنهب والاعتداء على اعراض النساء وانواع من الانتقام من السكان المدنيين ، ومن الاعدام بالجملة وبلا محاكمة ، ومن اللجوء الى التعذيب لانتزاع الاعترافات او المعلومات . والواقع ان هؤلاء الشهود لا يخفون شيئا ، ويفضحون جميع جرائم الحرب التي ارتكبت تحت انظارهم . والحق ان هذه الشهادات المعتدلة ، الذكية ، الحريصة على انصاف الجميع ، حتى اشد الناس اجراما ، أنما تؤلف وثيقة مرهقة الى ابعد الحدود . وان تلاوتها امر غير محتمل على الاطلاق ، فعلى القارىء أن يجاهد لينتقل من سطر الى سطر . ومع ذلك ، فاني اوصي بقراءة هذا الكتيب ، اوصي جميع الذين لم يعرفوه بعد ، واتمنى ان يقراه جميع الفرنسيين . ذلك اننا مريضون ، مريضون جدا .. ان فرنسا المحمومة الراكعة ، المأخوذة بأحلام مجدها القديمة وباستشعار خجلها ، تتخبط وسط كابوس مبهم لا تستطيع التخلص منه ولا تستطيع سبر غوره . فاما ان نرى بوضوح ، واما ان ننفجر .

فمنذ ثمانية عشر عاما ، نرى بلادنا واقعة ضحية ما سماه القانون « عملية قتل المعنويات » والحق ان قتل معنويات امة لا يكون اولا بتخريب معنوياتها ، وانما يكون بحط اخلاقيتها . اما الطريقة ، فيعرفها الجميع : فحين ألقوا بنا في مغامرة حقيرة ، وضعوا في نفوسنا ، من الخارج ، شعورا بالذنب الاجتماعي . ولكننا نصوّت، ونمنح السلطات ، ونستطيع بطريقة ما ان نسحبها : فان اندفاعات الرأي العام تسقط الوزراء ، وينبغي ان نكون شخصيا ضالعين بالجرائم التي ترتكب باسمنا ، لان بوسعنا ان نوقفها وهذا الشعور بالذنب الذي يستريح في نفوسنا ، جامدا ، غريبا ، ينبغي ان نأخذه لحسابنا ، وان نذل وندنؤ لنستطيع احتماله .

على اننا لم نسقط الى مثل هذا الدرك لنستطيع ان نسمع صراخ طفل معذب ، من غير ان نشعر بالهول

والارتعاد (١) . وكم يكون كل شيء يسيرا ، وكم يسهل رد الامر الى نصابه ، لو ان هذه الصرخات تطرق آذاننا . ولكنهم في الواقع يقدمون لنا المعروف بخنقها . ليس ما يقتل معنوياتنا هو القحة وليس هو البغض ، كلا ، انما هو الجهل الزائف الذي يعيشوننا فيه والذي نسهم نحن انفسنا في الابقاء عليه . ان حاكمينا ، لشدة حرصهم على تأمين الراحة لنا ، لا يتورعون عن ان يلغموا حرية التعبير ، فاما اخفاء الحقيقة ، واما غربلتها . حين يقتل الثوار اسرة اوروبية ، لا توفر علينا الصحف شيئا من اخبار هذه المجزرة ، حتى ولا صور الاجساد المقطعة ، ولكن حين لا يجد محام مسلم اي ملجأ من جلاديه الفرنسيين الا الانتحار فان الخبر يشار اليه بثلاثة اسطر « مراعاة » لحساسيتنا. فالاخفاء والخداع والكذب واجب على مخبري فرنسا ، والجريمة الوحيدة هي **تعكير صفونا** . ولقد اثبتوا ذلك للسيد بايريفا Peyerga : فليس ثمة في الجزائر من يفكر في انكار الحوادث التي رواها ، وانما يؤخذ عليه فقط انه رواها لنا . اننا فرنسيون ، وهناك جنود فرنسيون يقتلون بلا وعي في شوارع مدينة الجزائر تحت انظار السكان الاوروبيين المتعطشين للحرب ، ولكن هذا ليس من شأننا . ان حقيقة افريقيا هي خمر قوي جدا ، اقوى من ان تحتمله ادمغتنا الطرية : فما عساه يصيب المعمرين اذا سكرت البلاد الفرنسية ؟ ان الهدوء هو ما نحتاج اليه ، فترة استجمام ، بعض الوان التسلية : فمنذ وفاة لويس السادس عشر ، اصبح كل فرنسي حقا يتيما ، وان حكومة موليه تعرف حداد طبقتنا البورجوازية وتقاسمها اياه ، ولما كانت لا تتأخر عن اية تضحية ، فقد نصبت ملكة انكلترا ، ثلاثة ايام ، على عرش فرنسا (٢) . فما الذ ذلك وافتنه ! ان الناس يتحدثون فيما بينهم من غير ان يعرف بعضهم بعضا ، وهم يتماسكون بالايدي ويرقصون .. ومع ذلك ، فان في الجزائر رجالا اشداء يتابعون عملهم : فليست للجلادين ايام عطلة او عيد ، وان الراديو يحمل اليهم تنهدات نشوتنا ، فيقولون في انفسهم « اما وقد حصلوا الآن على ملكتهم ، فليدعونا وشأننا ! ». وقد ذهبت الملكة ، وهي تستريح في قصر وندسور ، فاذا فرنسا ، وقد استبد بها الحب ، تسقط مريضة وتلزم السرير، واذا الحكومة الفرنسية تسير على اطراف أصابعها. « لا **تقلقوا** نومها » . ومع ذلك ، فاذا اتفق لاحدنا ان يفتح عينه وان يسأل ممرضيه ، فسرعان ما تلجأ الحكومة الى حيلة اخرى : ففي خطة قلم ، تصنع لجنة للحماية ليست لها من مهمة اخرى غير تخفيف مسؤولياتنا . « أهناك تجاوزات وسوء تصرف ؟ ربما ، ولكن مرة او مرتين . ولا بد من مثل ذلك في الحروب . ولكن ما الذي يهمكم ؟ انكم بعيدون عن مدينة الجزائر ، وانتم لا تعرفون القضية ، فاولوا ثقتكم اذن لجنة الحماية هذه . سوف نؤلفها من اشخاص طيبين ، اختصاصيين في الوساوس وحالات الضمير . فأعطوها ما ينتابكم من قلق ، فانها ستنقله الى الجزائر . وناموا قريري العين . »

ليتنا نستطيع النوم ، وليتنا نستطيع ان نجهل كل شيء ! ليتنا مفصولون عن الجزائر بجزر من الصمت ! وليتهم يخدعوننا **حقا** ! ان الاجنبي يستطيع آنذاك ان يشك بذكائنا، ولكنه لا يشك بسلامة طويتنا .

والواقع اننا لسنا سليمي الطوية . اننا قذرون . ان ضمائرنا لم تعكر ، وهي مع ذلك مبلبلة . وحاكمونا يعرفون ذلك جيدا . وهم يحبوننا على هذا النحو : ان ما يريدون الحصول عليه بعناياتهم المرهفة ومراعاتهم المعلنة ، انما هو اشتراكنا في الجريمة ، تحت ستار جهل مزيف . فان **الناس جميعا** ، قد سمعوا بألوان التعذيب ، وقد تسرب منها انباء الى الصحف الكبيرة رغم كل شيء ، ونشرت بعض الصحف الشريفة الصغيرة شهادات مختلفة ، وتداولت الايدي نشرات ، وعاد جنود يتحدثون .. ولكن هذا هو بالذات ما يخدم مفسدي المعنويات : لان كل شيء يضل او ينبت في الكثافة الاجتماعية ، ويجب ان تشق الدروب للانباء الآتية من هناك ، ثم ينعطف الدرب وتموت الانباء. وهذه الصحف والنشرات لم يقرأها معظم الفرنسيين وهم لا يستطيعون قراءتها : وانما هم يعرفون اشخاصا يقرأونها وكثيرون منا لم يسمعوا قط مجندا يتكلم ، وانما نقل اليهم ما كان يقوله بعض العسكريين . وهذه الشهادات البعيدة ، التي نقلت فما لاذن ، وكذبت رسميا ، تصاب في اثناء التجوال بنقص تدريجي في الخطوة . وهنا تنتظرنا « العملية » وهنا ننتظر انفسنا ويا للاسف ! فلماذا نصدق هذه الروايات ؟ اين هي الوثائق ؟ أين هم الشهود ؟ اما الذين يصرحون بأنهم مقتنعون ، فلانهم كانوا كذلك من قبل . صحيح انه لا يمكن رفض الامكانية بصورة « مسبقة » .. ولكن يجب الانتظار، ويجب الا نصدر الحكم قبل ان نتيقن . واذن ، فاننا لا نحكم . ولكننا لا نستعلم كذلك . فما ان نحاول الحصول على اوراق الدعوى ، حتى يتحول مجتمعنا الواضح الى غابة عذراء : اننا نسمع من بعيد جدا ، وبصورة غامضة ، صوت الطبل، ونأخذ نسير في دائرة مفرغة اذا اردنا الاقتراب منه . ثم نقول : حسبنا ما لدينا من هموم شخصية ولا حاجة الى الصاق هموم الاخرين بنا . ان من قضى نهاره في العمل ، وتلقى في المكتب جميع مضايقات الحياة اليومية ، ينبغي الا يطلب منه ان يقضي السهرة وهو يجمع الاخبار عن العرب .

وتلك هي اولى اكاذيبنا ـ ليس على مفسدي المعنويات بعد الا ان يشبكوا اذرعتهم ويقولوا : سوف ننجز العمل بأنفسنا . والحق ان الهموم العملية لا تمنع انسانا من ان يقرأ الجريدة بعد العشاء ، ذلك ان الحكم في القضايا العامة يلهي عن القضايا الخاصة ، وان ذرف دموع رقيقة او الابتسلام لعسر هضم عنيف ينسي الغضب المكبوت بعد

(١) راجع الصفحتين ١٠ و ٥٩٩ من « مجندون يشهدون »

(٢) يشير الكاتب الى زيارة ملكة انكلترا اخيرا الى فرنسا (المترجم)

الظهر . ان الصحف تغازلنا : فهي تريد ان نؤمن بأننـــا طيبون ... وهنا يكمن الكذب ــ وتبرير الكذب : اجل ان الادلة تعوزنا ، ولذلك لا نستطيع ان نصدق شيئا ، على اننا لا نبحث عن هذه الادلة ، لاننا **نعرف** ، بالرغم منا . وما الذي كان يطلبه مفسدو المعنويات ؟ انهم يطلبون ذلك ولا شيء سواه : جهلا معذورا ــ وغير قابل للغفران اكثر فأكثر، يذلنا تدريجيا ويفربنا كل يوم من اولئك الذين كان علينا ان نحكم عليهم . حتى اذا أشبهناهم تماما ، صحنا : «جميع الناس اخـوة ! » ثم نرتمي بين اذرعتهم .

اما كذبتنا الثانية ، فقد اعدوها لنا . ان الشرك هو لجنة الحماية . ليتنا نستطيع ان نوليها ثقتنا ! ولكن لنفرض اننا نريد ذلك ، فمن اين نستمد الخداع اللازم ؟ ما فائدة لجنة حين تتكاثر الجرائم والمذابح في طول الجزائر وعرضها ؟ من الذي ينبئها في مدينة الجزائر ، عما يجري في الريف ؟ ومن الذي يستشيرها ؟ وفـي اي شيء ؟ اتراها ستذكّر الناس بحقوق الانسان ؟ ان الجميع يعرفونها ، بما فيهم السيد لاكوست . وانما القضية ان يعترف بهذه الحقوق : فكيف يراد ان تبلغ ذلك ؟ اذا كان الوزير المقيم لا يستطيع ان ينهي الاعمال غير الشرعية ، أفيظن ان تزويده ببضعـة مستشارين سيمكنه من القضاء على هذه الاعمال ؟ واذا كان يريد ويستطيع ان يقضي على التجاوزات ، فأية حاجة له بهم ؟ ولكن الواقع ان الحكومة قامت بحركة ما ، فصرح السـيد موليه بأنه « قلق مضطرب » وانه يريد النـور كله في الموضوع . فاذا نحن صدقناه فان لنا في ذلـك الاعذار : ان الكلمة الانسانية مصنوعة لتصدق ، واذا نحـن لم نصدقه ، فنحن معذورون اكثر : ان كلمة السيد موليه مصنوعة لتوضع موضع الشك . نحن نعرف ان لجنـة التحقيق ستؤلف من رجال لا غبار عليهم ، ونعرف كذلك انها لن تستطيع ان تعمل شيئا : ان نزاهتهم تفيدنا في انها تقنّع عجزهم . وهكذا نرفض ايلاء الحكومة الثقة ، ومـع ذلك نعتمد عليها لتبديد حذرنا .

مجرمون . مجرمون مرتين . نحن نشعر بأننا فريسة ضيق واضطراب ، ليس هو الهول بعد ، ولكنه الارهاص بأن الهول موجود ، قريب منا جدا ، وانه يتهددنا بحيث لا نستطيع ولا نريد ان ننظر اليه وجها لوجه . وفجأة ينبعث بريق يبهر العيون : « واذا كان هذا صحيحا ؟ » وهكذا يجد كل منا جاره مريبا ويخشى ان يصبح هو مريبا في عـين جاره . قد يختلف اصدقاء في الرأي حول حل القضيـة الجزائرية ولكن ذلك لا يمنعهم من ان يتبادلوا الاحترام . ولكن ما القول في الاعدامات بالجملة ؟ وما القول فـي اساليب التعذيب ؟ امن الممكن الاحتفاظ بشعور الصداقة تجاه من يقرها ؟ ان كل انسان يصمت ، وكل انسـان ينظر الى جاره الصامت ، وكل انسان يتساءل : « ما الذي يعرفه ؟ ما الذي يظنه ، ما الذي قرر ان ينساه ؟ » ان الناس يخشون ان يتحدثوا فيما بينهم ، الا اذا كانوا في اتجاه فكري واحد . فاذا اتفق ان اكتشفت مجاملة مجرمة لدى الانسان الذي شد على يدي ، فان هذا الرجل لا يقول شيئا ، ومن لا يقول شيئا يوافق . غير اني ، انا ايضا ، لا اقول شيئا . ولكن لنفرض انه كان هو الذي يأخذ علي ضعفي وميوعتي ؟ ان الحذر يعلّمنا عزلة جديدة : اننـا مفصولون عن مواطنينـا بدافع من خـوف ان نحتقر او نُحتقر . والحق ان هذا شيء واحد ، لاننا جميعا متشابهون ونحن نخشى ان نسأل الناس لان جوابهم يوشك ان يكشف عن انحطاطنا . فاذا همس لنا احدهم مثلا ، من غير عنف ، ليتخلص من قلقه وضيقه بأسرع ما يمكن : « والثوار ؟ ألم يرتكبوا الفظائع ؟» نفهم فجأة ان الخوف والرفض والصمت قد اسقطتنا مرة ثانية في عصور الثأر البربرية . انالفرنسيين بكلمة واحدة ، ذوو ضمائر فاسدة ــ ربما باستثناء السيد موليه ! وهذه الضمائر هي التي تجعلنا مجرمين : انتمزقات فكرنا ، ولعبة « الاستخباء » التي نلعبها في داخلنا ، وهـذه المصابيح التي نخفف نورها ، وهذا الرياء المؤلم .. ينبغي الا نجد فيها كلها طريق خلاصنا ، بل اشارة انحلال عميق. اننا نغرق. وقدبدأت ثائرتنا تثور اذ نرى الآخرين يصدرون حكمهم علينا ، فيغرقنا غضبنا اكثر فأكثر في الاشـتراك بالجرم : « لا يحق لاميركا ان تتكلم ! لو كنـا نعامل زنوجـا كما يعاملون هم زنوجهم !.. » هذا صحيح . فانه لا **يحق** لاميركا ان تتكلم . ولا يحق كذلك للسويد التي لا مستعمرات لها . لا يحق لاحد ان يتكلم : اما نحن فمن واجبنا ان نتكلم . وها نحن اولاء لا نتكلم . ان هناك مخبرين شرفاء ، شجعان،

دار الآداب

تقدم

سلخ الجلد

مجموعة قصص لـ

الدكتور محمد برادة

صدر حديثا

يقولون ما يعرفون ، كل يوم او كل اسبوع : فاذا نحن نريد هدمهم او سجنهم ، وهكذا يقل الاستماع اليهم . ولكن ماذا دهى الاصوات الشريفة الكبيرة التي اهتزت كالارغن في تشرين الثاني الماضي ؟ لقد صعّدنا من براءتنا نبرات حنق وغيظ لنشجب ـ بحق ـ التدخل السوفياتي في المجر . ولكن لماذا لا تلتزمون يا اصحاب الاصوات الكبيرة ، ان تقولوا لنا كل شيء عن انفسنا ؟ انكم تعرفون ، انتم . وليس لكم حتى عذر الجهل . انتم تعرفون الوثائق والشهادات . ان الامر يتعلق بنا اليوم ، ونحن بحاجة الى ان نعرف ، وان نصدق . اننا نحن الذين تستطيعون ان تخلصونا من كوابيسنا وتنقذونا من العار . ولكنكم تصمتون وانه لحساب خاطيء الا يحكم علينا من صمتكم اليوم ، بل من صخبكم في تشرين الماضي .

لماذا ؟ لان الفم يغلق الان ، ولاننا سنحشر في شرك حقير ، وفي موقف سبق لنا ان شجبناه نحن انفسنا ، لسوء حظنا . انها براءة مزيفة ، وهرب ، ورياء ، وعزلة وصمت ومشاركة في الجرم مرفوضة ومقبولة ، وهذا ما دعوناه عام ١٩٤٨ بالمسؤولية الجماعية ما كان ينبغي للشعب الالماني ، في تلك الفترة ، ان يجهل وجود المعسكرات .. لقد كنا نقول : « كفى هذرا . لقد كانوا يعرفون كل شيء !» وكنا على حق ، فقد كانوا يعرفون كل شيء ، واليوم فقط نستطيع ان ندرك ذلك : فاننا نحن ايضا نعرف كل شيء. ان معظم الالمان لم يكونوا قد راوا « داشو » ولا « بوشنوالد » ، ولكنهم كانوا يعرفون اشخاصا عرفوا اخرين قد راوا الاسلاك الشائكة او راجعوا بطاقات سرية في احدى الوزارات . وقد كانوا يظنون مثلنا ان هذه الانباء لم تكن موثوقة ، فكانوا يصمتون ، وكان يحذر بعضهم بعضا . افنجرؤ بعد على الحكم عليهم ؟ او نجرؤ على تبرئة انفسنا ؟ كم يجب علينا ان نبسط من الفرش في ساحة « الكونكورد » لننسي العالم ان اطفالا يعذبون باسمنا واننا نحن نصمت ؟

انه لم يفت الاوان بعد لاحباط عمل ملتزمي الهدم القومي، وما زال ممكنا تحطيم الدائرة الجهنمية لهذه المسؤولية اللا مسؤولة ، هذه البراءة المجرمة ، هذا الجهل الذي هو معرفة : فلننظر الى الحقيقة ، فهي ستتيح لكل منا اما ان نشجب علنا الجرائم المقترفة ، واما نتبناها ونحن واعون. من اجل هذا وجدت ضروريا ان ادل الجمهور على كتاب المجندين العائدين . فهنا الحقيقة ، وهنا الهول ، هولنا : فنحن لن نستطيع ان نراه من غير ان ننتزعه من انفسنا ونسحقه .

جان بول سارتر

ترجمة « الآداب »

شركة خياط للكتب والنشر (ش م ل)

٩٢ ـ ٩٤ شارع بلس ـ ص.ب ٦٠٩١
بيروت ـ لبنان ـ تلفون ٣٤٤٩٩٨

يسرها ان تقدم

الموسوعتين الكبيرتين

موسوعة الشعر العربي

الشعر العربي في شتى عصوره ومناطقه منذ العهد الجاهلي حتى عهد النهضة العربية الحديثة .

٢١٥ شاعرا من العصر الجاهلي
٩٠ شاعرا من العصر المخضرم
٢٤٥ شاعرا من العصر الاموي
٥٢٤ شاعرا من العصر العباسي
٢٧٠ شاعرا من العصر الاندلسي
٤٣٠ شاعرا من عصور الانحطاط
٢٩٢ شاعرا من عصر النهضة العربية
شعراء عديدون من العصر الحديث

دراسات قيمة عن كل شاعر ، حياته ، بيئته، شعره، عرض مشوق لافكار الشاعر واغراضه ومقاصده .

في ٣٢ مجلدا ضخما تضم الشعر العربي قديمه وحديثه ، كل مجلد يقع في ٦٥٠ صفحة من القطع المتوسط .

ديوان الشعر العربي كله بين يديك في مجموعة واحدة تصدر اجزاؤها تباعا .

●

موسوعة الفن العربي

... الفن والتزيين وهندسة الماضي المعمارية في ٢٠٠ لوحة اكثر من نصفها بالالوان ، تضمها ثلاثة مجلدات كبيرة ، اصدرتها مكتبة خياط للكتب والنشر في بيروت وباريس ، وهي اجمل هدية عن الفن الاسلامي ، من تصوير وتصميم « بريس دافين » الذي كان قد درس طوال اعوام مظاهر الفن العربي ، ليخرج هذه الموسوعة عن اجمل آثار العالم الاسلامي.

تحفة رائعة تزين مكتبة بيتك او مكتبك ، وتصور ادق ما توصل اليه الرسامون والمزخرفون والنقاشون الاسلاميون والعرب في العصور الماضية .

●

اطلب الموسوعتين من شركة خياط للكتب والنشر ، شارع بلس بيروت ، او من فرعها في باريس :

Les Editions KHAYAT 25, Rue Berne
75008 PARIS Tél : 293 - 68 - 33